مراجعة كتاب
ماذا رأوا في أمريكا؟

تأليف جيمس نولان

مراجعة: التجاني محمد الأمين زايد
أستاذ الفلسفة المساعد
كلية المجتمع – قطر

What they Saw in America

James L. Nolan
ISBN – 13: 978-1107146617

Reviewed by Tigani M A Zaid
Assistant Professor of Philosophy
Community college of Qatar- Qatar
tmaza1@hotmail.com

للاقتباس: التجاني محمد الأمين زايد، «ماذا رأوا في أمريكا؟ "تأليف جيمس نولان"، مجلة كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، المجلد ٣٧، العدد ٢

https://doi.org/10.29117/jcsis.2020.0247
© 2020 Zaid, licencee QU Press. This is an open access article distributed under the terms of the Creative Commons Attribution-NonCommercial 4.0 International license (CC BY-NC 4.0), which permits any noncommercial use, distribution, and reproduction in any medium, provided the original author(s) and sources are credited

في تطور القيم المجتمعية للمجتمع الأمريكي[1]

(التبعية، الفردانية، الإمبريالية، الرأسمالية، التطوع، العلمنة، الدين، العنصرية، العنف والسلوك البيئي...)

تلخيص نقدي لكتاب *What they Saw in America* "ماذا رأوا في أمريكا" للكاتب وعالم الاجتماع الأمريكي بروفسر جيمس نولان.

مقدمة:

نشر عالم الاجتماع الأمريكي بروفسر جيمس نولان James L. Nolan JR[2]– وهو ما زال في عقد الخمسينيات– كتابًا حديثًا بعنوان *What they Saw in America* وقد نشره في العام ٢٠١٦ بواسطة مطبعة جامعة كامبريدج.

اعتبر المؤلف– في مستهل شكره لمساعديه– كتابه هذا عملًا متصلًا بأعماله الأكاديمية السابقة المذكورة في الهامش أدناه[3].

ويرى الدارس هذا الكتاب قصةً رائعة في عالم المعرفة جسدها الكاتب من خلال أربع رحلات مشوِّقات ومميزات، قام بها إلى أمريكا أربعة من الأجانب الأفذاذ، من الذين عرفهم العالم في مجال الفكر والفلسفة والسياسة والاجتماع والأدب والدين، وقد تباينت جنسياتهم بين فرنسا وإنجلترا وألمانيا ومصر.

استهل بروفسر نولان كتابه، بعنوان "شكر وعرفان" ذكر فيه أسماء من ساعدوه في فهم النصوص العربية والألمانية لتعلقهما بأعمال اثنين من شخصيات موضوع كتابه، وهما: سيد قطب، وماكس فيبر.

وفي هذا الصدد ذكر الكاتب طلابًا من كلية وليماز، التي عمل بها، ترجموا له من العربية إلى الإنجليزية، نصوصًا من أعمال سيد قطب، ولم يظهر بين المذكورين اسم عربي![4] لكن في إطار بحث الكاتب عن فهم أعمق لسيد قطب ذكر اتصاله باسمين عربيين هما: صائب الدجاني[5] وإبراهيم الأنصاري، وشخصية أمريكية ثالثة[6]، لأن ثلاثتهم كانوا شهود عيان لسيد قطب، إذ تعرفوا عليه أثناء دراسته التي امتدت لفصلين دراسيين بكلية التربية في ولاية كلورادو في

---

(١) أود أن أشكر كل من ساعدني أو أبدى ملاحظات حول هذه الدراسة. وعلى رأس هؤلاء أستاذي د. علي أحمد حسين رئيس قسم اللغة الإنجليزية سابقًا بجامعة الخرطوم والأستاذ بكلية المجتمع في قطر الذي قرأ معي معظم نصوص الكتاب.

(٢) تندرج اهتمامات بروفيسور نولان التدريسية والبحثية ضمن المجالات العامة للقانون والمجتمع، والثقافة، والتكنولوجيا، والتغير الاجتماعي، وعلم الاجتماع المقارن. وقد نشر كتابه هذا، ماذا رأوا في أميركا: بواسطة مطبعة جامعه كامبريدج في العام ٢٠١٦.

(٣) تشمل كتبه السابقة لهذا الكتاب: اللهجات القانونية، والاقتراض القانوني: الحركة الدولية لحل المشاكل القضائية (٢٠٠٩)؛ إعادة اختراع العدالة: حركة محكمة المخدرات الأمريكية (٢٠٠١)؛ والدولة العلاجية: تبرير الحكومة في نهاية القرن (١٩٩٨). ومشروعه البحثي الحالي عن مشروع مانهاتن والسنوات الأولى من العصر النووي. وهو حاصل على العديد من المنح والجوائز بها في ذلك المنح الوطنية لزمالات العلوم الإنسانية ومنحة فولبرايت. وقد عقد زمالات زائرة في جامعه أكسفورد، وجامعه لوبورو، وجامعه نوتردام.

(4) Dan Burns, Cris Opila and Chloe Bordewich

(٥) وجدنا في النت عن اسم (Saeb Dajani) معلومات شحيحة تقول إنه شخص أمريكي من أصول شرق أوسطية ولد (١٩٢٨/١٦/٥ وتوفي ٢٠١٦/٩/١١) وأنّه مسلم وينتمي سياسيًّا إلى الحزب الجمهوري. غالبا يكون هذا هو المقصود بينما لم نجد معلومات عن إبراهيم الأنصاري. https://www.mylife.com/saeb-dajani/e31267296528

(٦) اسمهJamie McClendon ولم أجد له ترجمة بالنت أطمئن إلى أنها هي الاسم المقصود.

العام الدراسي ١٩٤٩. ويبدو لنا أن هذا اللقاء قد تم في زمن متأخر نوعًا ما، وذلك بالنظر لأعمار هؤلاء الذين زاملوا قطب قبل سبعين عامًا، مما قد يقود لاستنتاجٍ مفاده اهتمام مبكر للكاتب بسيد قطب. وقد تكون مسودة هذا الكتاب المنشور في العام ٢٠١٦ قديمة قبل هذا التاريخ بسنوات. وهذا يعضده إشارة الكاتب إلى قيامه منذ سنوات مضت- بتدريس مقرر يحمل نفس عنوان وموضوع الكتاب.

يقول المؤلف: "يأخذ كتاب ماذا رأوا في أمريكا؟- عقل القارئ من قصّة أربع رحلات مميزاتٍ لأربعة كُتَّابٍ مشهورين سافروا أفرادًا إلى أمريكا من بيئات متباينة وفي فترات متتالية امتد مداها مئة وعشرين عامًا (١٨٣٠-١٩٥٠)"[(١)].

كان أولهم المفكر والكاتب في الفكر السياسي، الفرنسي (أليكسس دي توكفيلي Alexis de Tocqueville ١٨٠٥-١٨٥٩)[(٢)] وثانيهم الفيلسوف الألماني وعالم الاجتماع المشهور ماكس فيبر (١٨٦٤-١٩٢٠) وثالثهم هو الكاتب والشاعر والفيلسوف الإنجليزي جلبرت شيسترتون Gilbert Keith Chesterton (١٨٧٤-١٩٣٦) ورابعهم هو الأديب المصري والمفكر الإسلامي المشهور سيد قطب ١٩٠٦- ١٩٦٦)

يلاحظ القارئ هذا التباين من خلال الأماكن التي أتى منها هؤلاء المفكرون (فرنسا وألمانيا وإنجلترا ومصر)، وكذلك من خلال الزمن الذي زاروا فيه أميركا توكفيلي (١٨٣١-٣٢) وفيبر (١٩٠٤) وجلبرت (١٩٢١ و١٩٣٠-٣١) وقطب (١٩٤٨-٥٠). ولهذا نلاحظ دقة الكاتب في اختياراته التي ستعطي قيمة إضافية لما قام به من دراسة. يقول: إن هدفه من هذا المجهود خدمة الثقافة الأمريكية. والكاتب على حق فيما نظن، وذلك بالنظر إلى قيمة هذا الكتاب وانشغاله بإصلاح حال القيم الثقافية لوطنه أمريكا.

ذكر المؤلف أهمية أن ينظر المواطنون الأمريكيون لواقعهم الثقافي الداخلي والنفسي، وذلك من خلال التغذية الراجعة الرؤية الخارجية- الرصينة لاختيارات نولان البحثية المتمثلة في هؤلاء العلماء الأجانب الأربعة، وهم ينظرون كما يقول- "برصانة إلى جوانب مهمة تتعلق بسمات الثقافة الأمريكية ممثلة في قضايا: الفردانية والتبعية، والرأسمالية والعلاقة الفريدة التي تربط بين هذه الثنائيات. وكذلك العلمانية والدين، والتباين السلوكي تجاه الطبيعة (البيئة)، وثقافة العمل الطوعي، والموقف من العنصرية ومشاكل العرق، والنزعات الإمبريالية.

ويرى الكاتب أن الاستماع إلى آراء هؤلاء الأجانب، سواء كانت متناقضة أو كانت أكثر صراحة في نقدها، يمكن أن تساعد المواطنين الأميركيين في فهم أنفسهم بشكل أفضل، والانتباه بوعي تام إلى قيم الثقافات الأخرى، وهذا سيؤدي إلى فهم أعمق للكيف الذي يفكر به الآخر تجاه الولايات المتحدة.

يقول الكاتب في مقدمة كتابه: "يرى توكفيلي أن الأمريكيين- بشكل لافت للنظر- يعيشون في عشقٍ دائمٍ لأنفسهم؛

(1) What they Saw in America p 1

(٢) كان أليكسس دي توكفيل- دبلوماسيا فرنسيا وعالما سياسيا ومؤرخا. اشتهر بكتابين مهمين أحدهما بعنوان **الديمقراطية في أميركا** (ظهر في مجلدين، ١٨٣٥ و١٨٤٠) والثاني **النظام القديم والثورة** (١٨٥٦). شغل نفسه بتحليل مؤشرات المستويات المعيشية والظروف الاجتماعية المتطورة للافراد وعلاقة ذلك بالسوق والدولة في المجتمعات الغربية. نُشِر كتابه الديمقراطية في أميركا بعد انقضاء رحلة توكفيل إلى الولايات المتحدة ويُعْتبر هذا الكتاب، اليوم عملا مبكرا في علم الاجتماع والعلوم السياسية. https://en.wikipedia.org/wiki/Alexis_de_Tocqueville

لذا فإنّ الأجانب وحدهم أو التجارب (المريرة) يمكن أن تجعل بعض الحقائق تصل إلى مسامعهم! وملاحظة توكفيل هذه استهل بها الكاتب كتابه وقد عضد صحتها بإفادات متطابقة من علماء آخرين. لكن الرؤية الخارجية- حسب عالم العلوم السياسية رسِل هاسون- يجب ألا تكون من شخص واحد، بل المقارنة يجب أن تكون بين عدة أشخاص. ولهذا سعى المؤلف أن يختار هؤلاء الأجانب الأربعة: الفرنسي توكفيلي والألماني ماكس فيبر والإنجليزي شيسترون والمصري قطب.

يرى المؤلف أن ملاحظات هؤلاء الأربعة، رغم ارتباطها بشخصياتهم وآرائهم الخاصة إلا أن الدارس يستطيع من خلال هذه الملاحظات أن يرصد ما هو مشترك حول الطابع الثقافي للمواطن الأمريكي سواء كان هذا الطابع محليًّا أو عابرًا للقارات بحسب رأي هؤلاء الكُتاب.

وجدير بالذكر، الإشارة إلى أن الكاتب قد ذكر الحوارات والمناقشات التي أعقبت هجمات الحادي عشر من سبتمر ٢٠٠١، وعدَّها حافزًا ضمن الحوافز التي دفعته لكتابة هذا الكتاب، ولاسيما السؤال الذي طرحه الإعلام الأمريكي عقب تلك الهجمات: لماذا يكرهوننا؟ ويرى الكاتب أن هذا السؤال سرعان ما تلاشى عن الوعي المحلي الوطني الأمريكي حينما دخلت أميركا في حروبها مع أفغانستان والعراق. ولكن مازال هذا السؤال يراوح مكانه كمسألة هامة، حيث لم يعد يرضي العقلاء تلك الآراء العامة للأمريكان التي تصنف الكارهين لهم بأنهم "أعداء الحرية". أي يكرهونهم لأنهم "أعداء للحرية". بمعنى آخر: فلا يكره الأمريكي إلا أعداء الحرية. يقول الكاتب في هذا الصدد: "إن هذا التفسير الناقد لم يعد يرضي من يبحثون عن تفسيرات معقولة لحال الكراهية". وليس مستغربًا جراء هذه النفسية الرافضة للنقد- أن يُعطى مثل هذا السؤال القدر اليسير من الوقت والجهد للتفكير فيه كما ذكر الكاتب.

يرى الكاتب أن الشعور بالقلق العميق حيال مصالح ووجهات نظر الآخر غير الأمريكي (الدول الأخرى) لم يعد- هذا القلق- ينظر إليه كقضية تستحق الاهتمام عند المواطن الأمريكي. وقد أكدت نتائج دراسات استقصاء الرأي العام التي جرت في ٢٠٠٧ أن الغالبية المطلقة من المستطلعين في البلدان الأخرى ترى أن الولايات المتحدة لا تأخذ في الاعتبار مصالح دولهم حينما تتخذ قرارات سياسة في الشؤون الخارجية. ويورد الكاتب أن ٧٤٪ من المصريين، و٧٥٪ من الأتراك والأردنيين و٨٣٪ من الفلسطينيين يرون أن الولايات المتحدة لا تأخذ مصالح دولهم في الاعتبار بدرجة كافية. وهذا لا ينطبق على الشرق الأوسط فحسب، بل كذلك على أوروبا. إذ يرى ٧١ ٪ من الألمان و٨٩٪ من الفرنسيين و٧٥٪من الإسبانيين و٩١٪ من السويديين أن الولايات المتحدة تتجاهل مصالح بلدانهم.

إن كثيرًا من الأمريكيين الذين يخاطرون بطرح سؤال: "لماذا يكرهوننا؟" ينظرون إلى الأفكار السلبية التي يكتبها أو يشيعها الآخرون عنهم. ولهذا- فبعد وقوع هجمات ١١سبتمبر- ألقى بعض الإعلام الأمريكي الضوء حول زيارة سيد قطب لأمريكا (١٩٤٨-١٩٥١) وما نتج عنها من مقالات كتبها ونشرها متسلسة بعنوان "أمريكا التي رأيت". فخلصوا إلى رأي مفاده أن سيد قطب هو السبب في تشويه صورة أمريكا في الشرق الأوسط نظرًا لمكانته ككاتب مؤثر في قلوب القراء. لذا ربط لورانس رايت في كتابه *Looming Tower* بين هجمات سبتمبر ٢٠٠١ وزيارة قطب لأميركا

في ١٩٤٩! فيرى أن ذاك العداء الذي أظهره قطب هو الذي عجّل بوقوع الهجوم الإرهابي، ولا شك أن في هذا الرأي تسطيحاً للأسباب الحقيقية وراء ذلك الهجوم. هذا وقد اتفق مع لورانس غيرُه من الكُتَّاب الأمريكيين (مثال الصحفي دونالد بيرغن). ويرى بيرغن أن الأمريكيين الذين يطلبون العون في الإجابة عن سؤال: (لماذا يكرهوننا؟) يمكن أن تكون كتابات سيد قطب عن أمريكا هي البداية المنطقية لبحثهم عن الإجابة.

حاول بروفسر نولان أن يجيب عن سؤال طرحه على نفسه: لماذا تقارن وجهة نظر سيد قطب في أمريكا مع وجهات نظر الزوّار الأوروبيين الثلاثة: توكفيل وفيبر وتشسترتون تحديدًا؟ والجواب: لأن دراسات حديثة دعت إلى تكثيف الدراسة حول أعمال الرجال الثلاثة وغيرهم من الذين كتبوا عن أمريكا. وهذه الدراسات الناقدة لأميركا من هؤلاء الكُتَّاب الأربعة الذين زاروها وأقاموا في ثراها سنينًا، تختلف عن كتابات الآخرين الناقدة لأميركا ممن لم تطأ أقدامهم ثراها أمثال: هيدجر وماركس وغيرهم.

زار توكفيل وفيبر وتشسترتون أميركا من دول أوربية متباينة وفي أزمان متباينة، وثلاثتهم نخبة من رواد الفكر والثقافة. وكأن الكاتب أراد القول في إيراد هذا السبب: إن مقارنة آراء هؤلاء الثلاثة في أميركا ستوفر معيارا جيدا لمحاكمة آراء سيد قطب في أميركا.

ويرى المؤلف أن هذه الآراء الأوروبية بتباياتها البيئية والثقافية والزمنية، وخصوصًا تلك التي تتسق مع آراء سيد قطب بثقافته وزمنه المختلف، ستكشف للأمريكيين القيم المشتركة في الشخصية الأمريكية وتعتبر جميع هذه الآراء عبرة لمن أراد الاعتبار من الأمريكيين.

ويورد المؤلف اندهاش باحثين أمريكيين وجدوا اتجاهات مناهضة لأمريكا كُتِبتْ في القرن التاسع عشر، وكيف أن هذه الاتجاهات جاءت متسقة مع كتابات معاصرة حول الشخصية الأمريكية، ومن هؤلاء الباحثين بويد وتيرنر (Boyd and Turner)

إن التباين بين هؤلاء الزوار الأربعة مع اعتبار المشترك الذي توصلوا إليه سيعطي نتائج وتوصيات هذه الدراسة قوة ومصداقية. علما أن توكفيلي وفيبر وتشسترتون يُصنَّفون- عكس قطب- ممن كتب عن أميركا وهم أصدقاء لها. ثم إنه لأمرٌ يستحق التوقف والاعتبار أن تجد تشابهاً بين هؤلاء الثلاثة من ناحية، وقطب من ناحية أخرى، سواء فيما أعجبهم أو أقلقهم في أمريكا.

أخيرًا فإن الكاتب لم يهتم فقط بما أورده هؤلاء الأربعة فقط، بل تطرق أيضًا إلى كثير من الزوار والمختصين الذين اهتموا بالقضايا التي توقف عندها هؤلاء المفكرون الأربعة، وذلك ليعضد دراسته.

وتطرق الكاتب للصعوبات التي واجهت هؤلاء الزوار الأربعة سواء من الناحية الصحية أوالاجتماعية- الثقافية، أثناء إقامتهم في أميركا، كما وثق لحظات ممتعة قضوها في أميركا من خلال التقائهم بمشاهيرها وعظمائها في شتى المجالات. كما وتحدث الكِتاب عن الخلفيات والأسباب التي جاءت بهؤلاء الأربعة لأميركا، وكذلك تحدث عن مكانة كل من هؤلاء ودرجة استقبال أميركا لكل واحد منهم. ويبدو أن قطب كان أقلهم حظًّا في احتفاء أمريكا بأولئك الزوار

الأربعة. وذكر الكاتب أن دوافع زيارة قطب لأميركا يحيطها الغموض. ولعل الكاتب سمع عن روايات تتحدث و عن أن النظام الحاكم في مصر أراد استبعاد قطب إلى أميركا حتى يتخلص منه من حيث لا يدري قطب[1].

كتب هؤلاء الأربعة كما يقول الكاتب- عن مشاهداتهم في أميركا مستخدمين تحليلًا مقارنًا عَكَس الأوضاعَ الاجتماعية والسياسية التي تعيشها أوطانهم. لقد ضمَّنوا في كتاباتهم مشاكل وقضايا أوطانهم سواء تلميحًا أو تصريحًا. مثلاً يقول توكفيلي الذي ألَّف كتابًا بعنوان: "الديمقراطية في أمريكا"- في رسالة خاصة: (على الرغم من أنني لم أتحدث عن فرنسا في كتابي إلا نادرًا، بيد أني لم أكتب صفحة دون أن أتذكر فرنسا). أما فيبر فقارن بين أمريكا وألمانيا خصوصًا في النشاط الزراعي، بينما أظهر تشسترتون الفوارق بين إنجلترا وأميركا في كتابيه حول أمريكا، وكذلك أثر الأمركة الثقافية على الإنجليز. أما قطب فتحدث عن مصر والإسلام بشكل عام.

واهتم الكاتب بإبراز الخلفيات الأكاديمية والسير الذاتية والبيئات المحلية لزواره، وكيف أثر ذلك على تبويب ما شاهدوه، وعلى مدى إحساسهم بما شاهدوه .

هذا الكتاب:

هذا الكتاب- كما يقول كاتبه- كتاب في الدراسات الثقافية المقارنة، اهتم بالمواضيع المشتركة التي انتبه إليها الزوار الأربعة. لقد وفر الكتاب فصلين لملاحظات كل زائر. وحاول الكاتب أن يستنطق أجوبة للأسئلة التالية لكل زائر: لماذا زاروا أمريكا؟ أين ذهبوا وأين تجولوا داخل أمريكا؟ ومع من تحدثوا؟ وماذا شاهدوا؟...إلخ. وعلى هذا النحو، كما يرى الكاتب، فإنّ الكتاب هو أقل من عمل يهتم بنظرية مجردة في تاريخية الثقافة (الاثنوغرافيا)[2]. وإنما تتبع فيه مؤلفه، بقدر الإمكان، رحلات الزوار وسعى إلى فهم ما رأوه وسمعوه في الواقع؟ وإلى أي مدى شكلت تلك المشاهدات تفسيرات كلٍّ منهم لأمريكا.

يقول الكاتب: إن كتابه لا يهدف كثيرًا إلى الإسهام في إنتاج رؤية جديدة حول صراع الحِجاج النظري، ولا ينخرط في ممارسة انتقائية من التاريخ الفكري، ولكنه بدلًا من ذلك يهدف إلى تأسيس (فكري- ثقافي) مقارن لملاحظات الزوار من خلال قصص زياراتهم الواقعية.

القضايا المشتركة التي تطرق لها الزوار الأربعة:

النظام الزراعي وارتباطة بنظام الطبيعة، الرأسمالية وارتباطها بالفردانية، العنصرية، المذهب الفردي وارتباطه بالتبعية، الدين والعلمنة والإمبريالية الأمريكية. وتحدثوا عن انطباعهم عن السلوك العام للمواطنين الأمريكيين. وبصورة عامة كما يذهب الكاتب- نستطيع القول: إنه لا يوجد من بين الأربعة من وقف من أمريكا موقفاً سلبياً،؛أي: لم يجد شيئاً حسناً في أميركا. وعند التفصيل سنجد توكفيلي هو الأكثر وضوحًا في حبه لأمريكا والمواطن الأمريكي إلى درجة اعتبار نفسه نصف مواطن أمريكي، بينما سنرى ماذا أعجب الثلاثة الباقين؟

(١) انظر صلاح عبد الفتاح الخالدي، أمريكا من الداخل بمنظار سيد قطب، الدار الشامية للطباعة والنشر، ص: ٨.

(٢) ماذا رأوا في أمريكا، ص: ٧.

الهوية القومية الأمريكية:

يرى الكاتب أن الأوربيين الثلاثة اتفقوا على أن الشعب الأمريكي شعب مضياف وغير متحيِّز طبقيًّا وحميمي في علاقته ويمتلك الحيوية الكافية والألفة مع الآخرين. كما أن المواطن الأمريكي يحب العمل التطوعي وتجمعه القضايا الاقتصادية والسياسية وروح المجتمع المدني. ويرى هؤلاء أن هذه الروح التعاونية حول هذه القضايا هي التي أسهمت في نجاح الديمقراطية الأمريكية، بينما أعجب قطب بالموراد الاقتصادية الهائلة للشعب الأمريكي ومصادر الجمال في البيئة الطبيعية، كما أُعجب بالنشاط العلمي والتكنولوجي.

وقد أظهر تشسترتون عشقًا للسلوك الأمريكي إلى درجة أنه اعتبر أن أمريكا قد صدَّرت سلوكًا ثقافيًّا لأوروبا، وأن ذلك السلوك الفاضل الذي تعتز به أوروبا يوجد في أمريكا ما هو أفضل منه. وما يصدره الأمريكيون خارج بلدانهم أقل حسنًا مما يمارسونه في حياتهم اليومية. فالجانب المشرق في الشخصية الأمريكية غير ظاهر. إنما الظاهر هو الجانب المظلم المتعلق بحب المال والسلطة والانغماس في حياة الجنس. وفي آخر الكتاب أشار الكاتب إلى نصيحة تشسترتون التي ترى أن الجمال لا يُصدر إليك، بل عليك أن تسافر لتراه في مكانه الذي نبت. وهذا اعتذار لطيف من تشسترتون للشعب الأمريكي الذي أحبه.

واتفق الأربعة على وجود الشخصية القومية الأمريكية كصاحبة هوية مميزة مع وجود كل الظروف التي تضعف القومية، كالتعددية والهجرة بخلفياتها الثقافية والأيديولوجية المتباينة كأنها مستعمرات ثقافية متناحرة. وأكد الأربعة وجود الهوية القومية رغم كل هذه المعيقات. وتكلم توكفيلي عن الشخصية الأمريكية كحالة قومية متميزة رغم عدم التجانس. إنّ أمريكا- عنده- حشد من كل العالم، لكن- وعلى الرغم من ذلك- يوجد بينهم قدر معقول من التجانس هو قوام هذه الهوية القومية الأمريكية.

وأكد تشسترتون ما أكده توكفيلي حول وجود الوحدة الهوية الواحدة- مع وجود التنوع وأن ذوبان هذا التعدد في وعاء من التنوع هو الذي أدى إلى القوة والتماسك.

إن (القيم الأساسية المفتاحية الداخلية هي التي وحدت هذا التنوع) مثال ذلك مقولة: كل الناس سواسية؛ فهي بمثابة عقيدة لكل الأمريكيين، سواسية من حيث العدل وأن وظيفة الحكومة التي تحكمهم هي تحقيق العدالة بينهم، ولهذا تكون السلطة عادلة، وبالطبع فإن الكاتب يتحدث عن مرحلة ما بعد إنهاء التفرقة العنصرية.

بدأت هذه الهوية المتماسكة تضمحل كما يرى الكاتب- بفعل التعددية فأصبحت شيئًا لا يمكن إعادته من جديد كما كان قبل الخمسينيات، لكن كما يرى الكاتب- التحليل الدقيق للشخصية الأمريكية سيستنتج سمات ما يجمع هذه الشخصية وهي ما نطلق عليه الهوية الأمريكية. وهذه الشخصية الأمريكية هي الظاهرة التي تحدث عنها الزوار الأربعة من خلال ما شاهدوه.

ثقافة حمل السلاح والعنف:

علق الزوار الأربعة على موضوع ثقافة حمل السلاح، فأثناء سفر توكفيلي لولاية ألباما، لاحظ انتشار حمل السلاح تحت الملابس. وتفاجأ ماكس فيبر بأن محررًا صحفيًّا كان سيلتقي به في الغد، قد تشاجر مع زميل صحفي، ووصل به الأمر إلى أن شهر السلاح في وجهه. أما تشسترتون فقد أنجته العناية الإلهية من إصابة محققة جراء العراك بالأسلحة أمام الفندق الذي يقيم فيه. لكن أعجبه شعار في شيكاغو يقول: القَتْل لمن يَقْتُل. كما لاحظ أن معظم هذه الجرائم محصورة بين عصابات امتهنت الإجرام. أما سيد قطب فقد لاحظ ميلًا عامًّا من غالبية الأمريكيين نحو العنف وقد لاحظ هذا ليس في التاريخ الأمريكي فحسب، بل لاحظه أيضًا في حبهم لمشاهدة أفلام العنف (البوليسية والكاوبوي).

وتحدث ثلاثتهم عدا توكفيلي عن الحماس المفرط بين مشجعي كرة القدم، بينما انتقد قطب بشدة ما لاحظه من عنف بين مشجعي كرة القدم؛ إذ صادف أن حضر مباراة عام ١٩٤٩.

العنصرية:

لاحظ سيد قطب أن العنصرية متفشية حتى بين لاعبي كرة القدم الذين يتوقع كثير من الناس ابتعادهم عن هذا السلوك! إذ انتبه سيد لمعاملة سيئة واجهها لاعب إفريقي داخل الملعب، وقد كان هو اللاعب الوحيد الذي شارك في مباراة صادف أن حضرها سيد قطب.

ناقش الأربعة قضية العنصرية (معاملة الأمريكيين البيض للسود). فقد ناقش توكفيلي موضوع العنصرية قبل إصدار قانون تحريم العبودية، بينما ناقشه البقية بعد التحرير، ولكن قبل إصدار قانون الحقوق المدنية الذي أجيز عام ١٩٦٠. وقد لاحظ الجميع أن المساواة التامة بين البيض والسود مستحيلة التحقق! وهنا قد يستغرب قارئ هذا الكتاب حديث المساواة المطلقة الذي ورد سابقًا، (ربما المقصود بالمساواة المطلقة المساواة أمام القانون وليس في الواقع المعاش). وقد أدان الأربعة قضية العنصرية بعبارة غليظة، فكتب توكفيلي عنها مستخدمًا عنوان "الشر الرهيب" الذي تمثله العنصرية في المجتمع الأمريكي ووصفها بأفظع جريمة في حق الإنسانية.

وكتب ماكس فيبر بعد إعلان التحرير- أنه من المضحك أن تكتب عن مساواة بين البيض والسود، فمازال الأمر كما هو، وأن الإعلان لم يكن أكثر من مجرد تنبيه للأمريكيين.

ووصف تشسترتون استمرار العنصرية بالجريمة والكارثة في تاريخ الأمريكيين واعتبر التطور القانوني في هذا الاتجاه شكلًا من أشكال العقوبة الجماعية للأمريكيين السود. ولاحظ قطب هذه القضية من أول وهلة يرى فيها أمريكا فأدانها بالمطلق. وناقش أربعتهم هذه القضية- أحيانًا- من خلال مرجعية الدين.

الدين والعنصرية:

حزن توكفيلي أشد الحزن حينما رأى المسيحيين يؤولون من التأويل- القضية في اتجاه لم يساعد في إنهائها قانونيًّا، على الرغم كما يرى توكفيلي- من أنه كان ينبغي، أن يمثل الدين الأساس لتحرير جميع الناس من العبودية، فقد خلق الله الناس جميعًا أحرارًا على ظهر الأرض.

نشر توكفيلي مقالًا لصالح قضية العنصرية، استغرب فيه أن يرى هذا الاتجاه سائدًا في شعب متحرر، وتمنى أن يأتي اليوم الذي يتحرر فيه الشعب الأمريكي كما خلقه الله في الأرض، ففند في هذا المقال حجج من يقول إن العبودية شأن يتماشى مع روح الأخوة والمحبة التي أتت بها المسيحية!

وتحدث ماكس فيبر بعبارات مشددة ضد الآراء العنصرية مثل آراء (الفريد بلوتز Alfred Ploetz)، كما اندهش لنماذج عنصرية من النخبة البيض تُمارس ضد نخبة من المثقفين الذين اختلط دمهم مع دم الزنوج![1]

ولاحظ تشسترتون نماذج التفرقة وأدانها كما أدان تبرير بعض المثقفين لها على أساس أنها تتماشى مع المسيحية، بينما المسيحية عند تشسترتون تدعو إلى خلاف ذلك، وعدم فهم ذلك من غالبية الأمريكيين هو ما أدهش تشسترتون.

بينما رأى قطب أن الإسلام هو الذي حلّ هذه المشكلة، فطغت روحه فوق الإثنية والقبلية وحتى القومية وتفوق على الحضارة الغربية التي عجزت أن تتسامى وتحل هذه المعضلة، بينما ستظل هذه المعضلة عصية على الحل في أمريكا كما يرى قطب.

وبينما يعرض الآخرون قضية الدين مساعدًا في تحقيق الحقوق المدنية للأقليات، يعرضها قطب عقيدةً محاربة العبودية.

ويرى الكاتب أن الأربعة تحدثوا عن فشل الأمريكيين تجاه حل المشكلة، وأن المسيحية الأمريكية لم تقضِ على العبودية، رغم الإشادة بمجهودات الكنيسة في التخفيف من آثارها، ورغم جهود رجال عظماء استخدموا الخطاب الديني في إبطال العبودية[2]. وهذا الرأي (رأي تقليل أثر الدين المسيحي في إبطال العبودية)- حسب الكاتب- عبرّ عنه مؤخرًا الرئيس أوباما عام ٢٠٠٦ في خطابه حول الدين والحياة العامة، بيد أن أوباما "عاب على العلمانيين طلبهم للمتدينين أن يتخلوا عن دينهم خلف الأبواب حينما يطرقون باب الحياة العامة"[3]، مع إشارة أوباما وتقديره للإنجازات العظيمة لعظماء الزعماء الأمريكيين الذين استخدموا لغة الخطاب الديني في التدليل على ما يرغبون في إنجازه والوصول إليه.

العنصرية والرأسمالية الأمريكية:

اعتبر تشسترتون الرأسمالية الصناعية ضربًا من العبودية، مادامت، هذه الرأسمالية، تعامل الناس وكأنهم آلات. كما رأى أن منع الكحول للعمال وهم سود- كان لمصلحة العمل وليس لأنهم سود. واتفق بيري مع تشسترتون أن عبودية الأفارقة ليست لأنهم سود، وإنما لأنهم فقراء وفي حاجة إلى العمل، ولهذا يتم استغلالهم لحاجتهم. فلا فرق كبير بين شراء الإنسان أو شراء حاجته. وقد لاحظ أثناء احتفال معهد بتخرج دارسيه أن بعض الخريجين لبسوا قلادة حول أعناقهم مكتوب عليها "للبيع"، وعزا ذلك إلى روح السوق الجديدة التي تستعبد الناس لحاجتهم المال. وبهذا ربط تشسترتون بين العبودية والرأسمالية والعنصرية.

(١) تحدث عن عزل عميدة الطالبات -جين كلارك- في معهد توسكيجي Tuskegee من التفاعل مع البيض! بسبب اختلاطها بدم زنجي، انظر ص: ٢٠٨.

(٢) مثل فردريك دوجلاس وإبراهام لنكولن ومارتن لوثر كنج، ص: ٢١٠.

(٣) ماذا رأوا في أمريكا، ص: ٢١٠.

سلوك الكسب المادي وروح التملك:

اتفق الأربعة أن الأمريكيين شغلوا أنفسهم بجمع المال بأي وسيلة. وهذا هو مصدر نقطة ضعفهم وتعاستهم (قلق وإحباط وسأم وملل) وهنا لا فرق بين إصرار قطب على نعتهم بهذا، ورأي توكفيلي المعتدل كما يرى الكاتب. ورغم أن المدى الزمني بين قطب وتوكفيلي كان قرناً كاملاً إلا أنهما اتفقا على شيئين: روح التملك المتفشية بين الأمريكيين، والأثر المادي السلبي على حياتهم.

أما تشسترتون فيختلف عنهما قليلًا، إذ لديه تفسيره الخاص لتبرير نشاط الأمريكيين غير العادي حول كسب المال، حيث يقول: "من الممكن أن يتكلم الأمريكي في مجال العمل أكثر من الأوروبي، ولكن ليس الدافع إلى ذلك حب الدولار فحسب وإنما حب العمل كذلك". ولكن الكاتب أضعف من تفسير تشسترتون هذا حين أورد دراسات مبنية على استطلاعات بين الأمريكيين تشير إلى أنهم ماديون بنسبة ٩ من ١٠. كما أن هناك دراسات تؤكد أنهم لا يحبون العمل ويصابون بمرض ضغط العمل، بيد أنهم يستمرون فيه مع مرضهم وضغطهم! وهذا يعارض رأي تشسترتون. وما يعارض حبهم للعمل من حيث العمل دراسة أخرى ترى أن ٧٠٪ من الأمريكيين يتمنون أن يغيروا أعمالهم التي هم فيها، و٧٥٪ لا يتمنون أن يرث أبناؤهم العمل الذي هم عليه من شدة كرهه . وقد أثبتت دراسة أخرى أن الشباب منهم يمكن أن يغيروا وظيفتهم إحدى عشرة مرة خلال أربعين عامًا. ولعل في هذا دليلًا كافيًا على عدم حبهم عملهم، ويبقى دافع المادية وجمع المال هو الذي يجعلهم يصبرون على رهق العمل.

ويورد الكاتب أن دخل الفرد الأمريكي قد تضاعف ثلاث مرات خلال أربعين عامًا من زيارة قطب، لكن معدل السعادة لم يزد. و في هذا تأكيد لرأي توكفيلي وقطب.

ويرى آخرون أن سلوك الأمريكيين يتطابق وسلوك المجتمعات الصناعية الأخرى، وليس صحيحًا أنهم غير معنيين بالقيم العليا أثناء جمعهم المال.

النشاط الزراعي والطبيعة:

اتفق الأربعة على أن الأمريكيين ينظرون إلى الأرض والطبيعة باعتبارهما مجرد مورد مال. فقد قارنوهم بالأمم الأوروبية الأخرى فوجدوا هذا الفارق. فمثلًا لاحظوا أن المزارع لا يمكث في أرضه كثيرًا، فالسوق قبل الزراعة. كما لاحظوا أن المنهج الرأسمالي كان موجودًا قبل تنفيذ التصنيع الزراعي في مجال الاقتصاد.

واتفق تشسترتون مع الثلاثة، لكنه كان متفائلًا بمستقبل الزراعة في أمريكا ومستقبل المجتمعات الريفية، على خلاف ماكس فيبر الذي كان متشائمًا بمستقبل الزراعة، وانزعج تشسترتون حينما لاحظ أن المدن الزراعية الريفية الصغيرة بدأت تستورد قيم وثقافة المدن الصناعية الكبرى، وكان يتمنى أن تطور نفسها باستقلال عن المدن الكبرى.

وبعد ١٧ عامًا من زيارة تشسترتون جاء قطب بخلفية القروي المصري من قرية زراعية صغيرة، ووصل إلى أمريكا

واتفق مع زملائه الثلاثة رؤيتهم، بيد أنّه استغرب أن الطبيعة الساحرة في أميركا لم تضْفِ أي روح جمالية في المواطن الأمريكي، كما أنّه لم يلحظ لهم اهتمامًا بهذا الجمال إلا من الناحية التجارية، خصوصًا بعد أن دخل النشاط الزراعي ضمن نشاط (البزنس) والنشاط الصناعي ودخول المكننة والتكنولوجيا والأسمدة البترولية، وقد حدث هذا التطور كفعل معاكس لتفاؤل تشسترتون.

والشواهد التي تبين هذا التطور السلبي هو اضمحلال الزراعة التقليدية بنسبة ٦٣٪ وتوسع الزراعة الصناعية بزيادة ٦٧ ٪. وقد أثر استخدام الغاز الطبيعي على البيئة تأثيرًا كبيرًا وارتفع عدد مستخدمي الغاز بدرجة جنونية وهذا اتجاه عارضته أوربا بشدة وأوقفته بالقانون.

إن أمريكا أكبر منتج للغذاء المعدل جينيًّا، وهذا الاتجاه غير مرحب به في أوروبا كما أشرنا، وهو غير مرحب به سواء أكان على مستوى الإنتاج أم الاستيراد، وهذا فرق آخر بين الثقافة الغذائية والاهتمام بالبيئة بين أمريكا وأوروبا.

ومن المحاصيل المعدلة وراثيًّا في أمريكا اليوم نجد ٩١٪ من فول الصويا و ٨٥٪ من الذرة و ٨٨٪ من القطن، بينما نجد العكس تمامًا في أوروبا. كذلك لُوحظ أن أمريكا تتعامل مع الحيوان وثقافة ذبحه مثل تعاملها مع أي مادة خام صناعية، والشيء نفسه في معاملة القطاع النباتي والبذور. ولتأكيد ذلك أُشير إلى قضية غريبة حكمت فيها المحكمة لصالح الفكر الصناعي الذي توقع ماكس فيبر أن يضرب بعمق المواطن الأمريكي:

رفع محام قضية ضد مزارع استخدم بذور فول الصويا المعدّل جينيًّا مرتين، في حين أن الشخص الذي يملك براءة اختراع هذه البذور المعدّلة اشترط على المشتري ألا يستخدمها أكثر من مرة واحدة. فحكمت المحكمة لصالح صاحب البذور لأن المحامي علل للمحكمة أن هذا السلوك أضر بمصلحة صاحب البذور! وكانت أول مزرعة أمريكية مهتمة بإنتاج الغذاء العضوي غير المعدل في العام ١٩٨٥.

هذا الاتجاه الثقافي الخاطئ في إدخال الزراعة والغذاء عمومًا ضمن صفقات تجارية يهمها المال أولًا دون أي اعتبار لصحة الإنسان والبيئة هو ما تخوف الزوار الأربعة من حدوثه في المستقبل القريب لأمريكا باستثناء تشسترتون الذي كان متفائلًا بالمستقبل، لكنه انزعج كما أشرنا- حينما لاحظ أن المدن الريفية الصغيرة المعتمدة على الاقتصاد الزراعي تقلِّد قيم المدن الصناعية الكُبرى.

المذهب الفرداني individualism والتبعية conformism :

قد يستغرب الباحث وجود هذين المذهبين المتناقضين معًا وفي وقت واحد! لماذا؟ لأنه من المفترض أن تقود الفردانية طبيعيًّا ومنطقيًّا إلى الاستقلال بين الأفراد المعتنقين مذهب الفردانية، ولعل الأمر لا يخلو من غرابة ويحتاج إلى تفسير مُلحٍ إن قادت الفردانية إلى التبعية المتمثلة في تقليد الآخرين[1].

وكان للزوار الأربعة رأي نقدي موجه لهذين المذهبين المتجذرين في الثقافة الأمريكية. حيث ربط تشسترتون بين

(١) هذه الملاحظة من كاتب الدراسة.

المنافسة الرأسمالية والتبعية؛ إذ يرى أنه حينما يتنافس شخص مع آخر يسعى للتطابق معه أو لمحاكاته! أما ماكس فيبر وتشسترتون فلاحظا نمط حياة ومظاهر متشابهة في الفنادق الأمريكية، كما لاحظا ميول الأمريكيين نحو اللبس المتشابه، وأدهشهما استسلام الأمريكيين لثقافة الموضات! وهذا الاستسلام للموضة- حسب ماكس فيبر- غير موجود في ألمانيا بذات الدرجة التي يوجد بها في أميركا! وحزن ماكس فيبر لطراز متشابه من المدن التي صنعتها الرأسمالية الأمريكية! ورأى أن المدن الصغيرة ستتطابق مع المدن الكبيرة في المستقبل القريب.

وعزا الأربعة تأثير هذا السلوك الغريب إلى سطوة الرأي العام حيث يجبر الأفراد على التقليد والتبعية، بينما شبَّه تشسترتون أثر موجة الرأي العام تجاه الأفراد بأثر النار في الهشيم.

وكذلك يرى قطب أن حرية الرأي في أمريكا لا تحدها حدود بينما كتب توكفيلي بأنه "لا يعرف بلدًا فيها حرية حقيقية للفكر مع استقلالية أقل في التفكير مثل أمريكا"![1] (يتبعون أفكار الآخرين! أي يشكلهم الرأي العام). ويرى هؤلاء الزوار أن هذه التبعية ليست في المظاهر الخارجية التي ذكرناها سابقًا فحسب، بل امتدت لتشمل طرائق التفكير والأفعال والمعتقدات.

الدكتورة يامي كِن، الصينية المتخصصة في الصحة العامة وهي تتأهب لمغادرة أمريكا، ألقت محاضرة عامة للأمريكيين حذرتهم فيها من عواقب التبعية التي سلكوها في التصنيع الهجين للرأسمالية وتأثر بها العالم، (حيث أضحى الجميع يستخدم تقنية التهجين لأجل كسب المال). وتساءلت ما إذا كان الأمريكيون يرغبون في أن يكون كل العالم على نمط واحد من السلوك الإنتاجي؟ إن الزوار الأربعة رأوا أن الأمريكيين أقل عزمًا في مجابهة الميول نحو ثقافة التبعية في السلوك الرأسمالي الصناعي كما ذهبت د. يامي في محاضرتها.

ولاحظ الأربعة أن الأمريكيين يحبون المدح، سواءٌ أكان لهم أم لوطنهم، ويخشون النقد، كما أنهم يعون آراء الغرباء فيهم.

ولعل هذا السلوك فيه شيء من التناقض بالنظر إلى المذهب الفرداني الذي آمنوا به. فالفردية الأمريكية تهدد الفردية بشكل عام! وحسب تشسترتون فإن المذهب الفردي يؤدي إلى نتيجة تتناقض مع الفردانية كسلوك فردي وهي التي تتناقض مع التبعية! ونرى حل هذا التناقض في تعليقنا عند المدخل للحديث حول عنوان الفردانية والتبعية.

أما توكفيلي فيرى أن فقدان الفردية عند الأمريكيين يرجع إلى كون السكان يرغبون في الانسجام والذوبان في المجتمع للحفاظ على ديمقراطيتهم. ويرى البعض أن مفهوم الفردانية أو روحها في كتابات توكفيلي تقود إلى الانسجام، أي عكس الفردانية! وخلاصة هذا أن التناقض بين الفردانية والتبعية من صفات الشخصية الأمريكية. وتفسير ذلك هو أن التبعية ترجع للضغوط الناتجة عن المنافسة والخوف من الخسارة. وعرض الكاتب بروفسر نولان- دراسات تؤكد هذا التناقض: الفردانية تؤدي إلى التبعية، وذلك في نشاط الناس الحر عبر وسائل التواصل الاجتماعي كالفيسبوك مثلًا.

(١) ص: ٢١٩.

التطوع Voluntarism:

من الملاحظ أن روح الاختلاط بالآخرين يقود إلى التطوع، وهذا ربما خلاف ما يرمي إليه المذهب الفرداني. فالفردانية كمذهب فلسفي تنحو نحو العزلة. وعند توكفيلي فإن الروح التطوعية خدمت شيئين:

حركت الفرد ليخدم الجماعة (الدخول في التعاون على البر)، وكذلك منعت تغول الأكثرية السيادية على حقوق الأفراد.

واعتبر ماكس فيبر قضية التطوع ثمرة من ثمرات الحياة الديمقراطية الأمريكية، وتطور الحياة الدينية من خلال الطوائف البروتستانتية، فضلًا عن الانتشار الواسع لوتيرة العلمنة التي ضربت الحياة الأمريكية. وبما أن الحياة الأمريكية غادرت الطوائف الدينية إلى الأندية والروابط العلمانية، فسَّر ماكس فيبر هذا السلوك التطوعي على أنه انعكاس للحالة الطبقية الاجتماعية الأرستقراطية الجديدة عند الأمريكيين، أكثر منه استجابة لدافع أخلاقي حميد!

واعتبر تشسترتون أن الروابط والجمعيات الاجتماعية غير الرسمية– في الحياة المدنية الأمريكية والاستجابة التلقائية لها من قِبل الأمريكيين هو انعكاس للوعي والإبداع الأمريكي، ودليل عافية الديمقراطية الأمريكية، وهذا هو رأي توكفيلي.

بينما رأى سيد قطب في الأمريكيين حالة من الانطواء؛ إذ رآهم يشغلون أنفسهم بحياتهم الفردية الخاصة. ويرى بروفسر نولان أن التقييم السلبي لسيد قطب في حق الأمريكيين شاركه معه آخرون. وقد لاحظ كثير من الكُتَّاب تنازع الأمريكيين بين حظوظهم في الحياة الفردانية ومشاركاتهم الآخرين في الحياة الاجتماعية، ووصل البعض إلى أنه يوجد اتفاق مع قطب فيما يتعلق بتدهور جوهر الحالة الروحية للمجتمع الأمريكي.

إلامَ وصلت الحالة التطوعية؟

يرى البعض أن نبوءات توكفيلي قد تحققت. وقد أُشير في هذا الخصوص إلى دراسات أُجريت في (١٩٨٥) أعدها خمسة كُتّاب بعنوان "عادات العقل" (العنوان نفسه اقتبس من كتابات تكفبلب) . أجمع الكُتّاب الخمسة لهذا الكتاب أن اللغة السائدة في الطبقة الوسطى للمجتمع الأمريكي المعاصر ما هي إلا تعبير عن المذهب الفردي individualism المستند إلى مذهب المنفعة الفردية utilitarian individualism، وعليه فكلما توغلت الفردية ضعفت روح الارتباط بالمجتمع المدني.

وبينما يوجد كُتاب متفائلون مثل فِشر– في هذا الشأن، يوجد آخرون متشائمون. فالمتفائلون يرون أن ثمة انحسارًا في المجموعات الرأسمالية الكبيرة الطبقية، بل الصحيح هو ظهور مجموعات صغيرة أكثر ارتباطًا بالمجتمع وتمثل ٤٠٪ من الأمريكيين، وظهور أكبر لهذه المجموعات الصغيرة في المجتمع الرقمي ووسائط التواصل الاجتماعي، حيث أظهرت نوعًا من التواصل بالمجتمع. بينما يرى آخرون أن المجتمع الرقمي لا يعبر عن المجتمع الأمريكي الحقيقي (انظر كتاب "الأمريكي المعزول" لجاكلين)، وهو تطبيق لشعار وسائط التواصل الاجتماعي الذي أضحى عنوانًا لكُتب أخرى مثل alone together"وحْدة مع معية آخرين"! فالارتباط الرقمي لا ينفي حقيقة العزلة! هذا وقد أكدت الدراسات أن ميول

الأمريكيين نحو العزلة ميول حقيقة، فمثلًا ارتفعت نسبة الأفراد الذين يعيشون منفردين في بيت من ٧,٧٪ ١٩٤٠ إلى ١٧٪ ١٩٧٠ إلى ٢٧,٤ في ٢٠١٣ بينما بلغت ٤٨٪ في بعض الأماكن مثل منهاتن.وتناقص بدرجة مذهلة عدد الناس الذين يتناقشون مع آخرين بهدف حل المشاكل الاجتماعية عن طريق النقاش.

ومع ذلك ومهما كان الحال- فلم يعدم الأمريكيون بحثًا عن الانضمام إلى مجموعات لممارسة قدر من التواصل، سواءٌ أكان تواصلًا رقميًّا أم حقيقيًّا، وقد عُبِّر عن هذه الحال بأن الأمريكي كائن يعيش وحده، بينما يحب أن يفك عزلته!

الدين Religion والعَلْمَنَة Secularization:

نظر فيبر إلى العلمانية باعتبارها تحولًا في الحياة الاجتماعية وفي التعليم الجامعي من هيمنة الطوائف الدينية إلى هيمنة الروابط والأندية المجتمعية المعلمنة. ويعتبر فيبر هذا التحول مؤشرًا لعلمنة المجتمع الأمريكي، بصورة أو بأخرى، وتحدث جميع الزوار الأربعة عن الحياة الدينية ومسار خطوات العلمنة في المجتمع الأمريكي.

فلاحظ توكفيلي ميول الطوائف البروتستانتية نحو هجْر المسيحية[١]، وحكم بأنّه في آخر المطاف إما أن تكون كاثولوكيًّا أو لا دينيًّا (علمانيًّا). يرى توكفيلي في انتهاء الدور الاجتماعي للدين في الحياة خطورة على الحياة الديمقراطية للأمريكيين كما حدثت هذه الخطورة في الحياة الفرنسية. لكن توكفيلي لا يرى مشكلة في فصل الكنيسة عن السياسة، بل يرى ذلك مجرد تنظيم يحفظ دور الدين الاجتماعي الحيوي في الحياة، كما أنّه اعتبر ظاهرة عدم الإيمان بين المواطنيين الأمريكيين مجرد انحراف عارض عن الدين، بينما اعتبر الإيمان ميلًا فطريًّا في البشر.

واتفق تشسترتون مع توكفيلي في حاجة الحياة الديمقراطية جوهريًّا إلى الجانب الاجتماعي للدين، كما اتفق معه حين لم يعتبر الجفاف الديني في سلوك المجتمع الأمريكي أمرًا حتميًّا، بل رآه ظاهرة مؤقتة، وسرعان ما يستعيد المجتمع عافيته الدينية. وشبَّه جفاف الحياة الدينية في المجتمع الأمريكي بنهر محجوز بخزانات صناعية مؤقتًا، قائلًا (بالعكس فإن الخزانات ستنفجر في النهاية وسيرجع النهر القديم إلى مساره الأول)[٢]، هذا تعبير أدبي لتشسترتون، فقد شبه هروب المجتمع الأمريكي عن الدين بنهر جفَّ مؤقتًا بسبب ما اعترضته من خزانات صناعية، ولكن إمساك الماء لن يطول، بل ستنفجر هذه الخزانات وسيعود النهر القديم-نهر التدين- إلى مساره القديم! ورأى ماكس فيبر- عكس توكفيلي وتشسترتون- أن هذا هو عصر المذهب الشكي، المتشكك في وجود إله، إن قدرنا في هذا العصر الإيمان بالعقلانية والفكر الحر الساعيين لتحرير العالم من سحره وجلاله وقداسته (يقصد تحرير العالم عن الدين لأن هذا الدين بمثابة السر أو السحر أو يضفي جلالًا وقداسة للعالم)[٣].

وأقر سيد قطب ما اعتبره حقيقة في الدول الغربية، مفادها انفصال الدين عن الدولة. واعتبر ذلك أحد أهم

(١) هذه ملاحظة نراها صحيحة، وقد كتبتُ منذ ١٩٩٤ "لوثر: سكيولرزم في رداء المسيح" عنوانًا جانبيًّا يبحث تَلَبُّس البروتستانتية بالعلمانية. انظر بحث التيجاني زايد لنيل درجة الماجستير الذي أجيز في العام ١٩٩٦ بقسم الفلسفة جامعة الخرطوم ونشره مركز التنوير المعرفي في العام ٢٠٠٧ بعنوان "مفهوم العلمانية في الفكر الغربي" ص: ١٢٩.

(2) P: 225 (The dams of unbelief will crumble and the ancient river of religion will pursue its old course".

(٣) المحرر (كاتب التقرير).

أوجه الضعف في المسيحية. وكما تخوّف توكفيلي فإنّ قطب قد لاحظ حضور العلمنة في أروقة الكنيسة البروتستانتية. وبينما ركز فيبر على وظيفة الكنيسة ككيان مستقل يبحث عن مصلحته النفعية، لاحظ قطب الدور الاجتماعي والتوجيهي للكنيسة ككيان اجتماعي يواسي ذوي المعاناة ويخفف عنهم. وهذا هو الدور الذي تلعبه الكنيسة حاليًّا.

يقول الكاتب إن أعمال ماركس فيبر الفكرية تمثل نقطة الانطلاق لغالب نظريات العلمنة المعاصرة. وقد بشر أحد تلاميذ فيبر - بيتر بيرغرPeter Berger- في ستينيات القرن الماضي ببلوغ العلمنة أعلى درجاتها، بحيث تحرر العقلانيةُ العالم تحريرًا كاملًا من سحره وقداسته. لكن بيرغر كما يقول الكاتب- تراجع عن هذه الأطروحة حينما رأى الواقع الماثل عكس ذلك. فرغم عمليات التحديث التي أصابت العالم، إلا أن العالم كما يرى نولان- أكثر تدينًا خلافًا لتنبؤات نظريات الحداثة والعلمنة التي كان فيها مبالغة، وأغفلت دور الإنسان باعتباره فاعلًا ومبرمجًا لعمليات التحديث لا العكس!

قلتُ: (هذا التفسير هو ضد النظريات التي تتحدث عن بلوغ العالم منتهاه كحالة كاملة من حالات العلمنة ينسى فيها الإنسان الله، ويرى هذا الاتجاه الناقد أن هذه النظريات تنحى منحى حتميًّا تعد فيه الإنسان كأنّه آلة بين رحى عمليات العلمنة، ونست أو تناست أنّه هو الذي يحرِّك ويراجع هذه العملية ويقيس آثارها ومساراتها فيوجهها أو يوقفها كما يشاء)[1].

ويرى الكاتب أن هذا الاتجاه الناقد لفشل العلمانية عن إزالة الدين انتبه له تشسترتون حينما تنبأ بعودة النهر العتيق إلى مساره القديم. والمهم في هذا الخلاصة كما أشار الكاتب أنّه ليس بالضرورة أن تقود عمليات التحديث إلى العلمانية حتمًا. وللعلمانية كما يراها الفيلسوف جارلس تيلر ثلاثة مظاهر:

١- تراجع الدين عن الفضاء العام (مجال عام).

٢-تدهور الدين اعتقادًا وممارسةً لدى الفرد (مجال خاص).

٣- نوع أضحت فيه قضية الإيمان أقل قبولًا في ظل الحساسيات أو المسلَّمات الثقافية المشتركة في سياقها الحديث.

(the common cultural sensibilities or taken for granted assumptions that make belief in the modern context less plausible)

يوضح الكاتب أن النوع الأول ليس بالضرورة أن يؤدي إلى النوع الثاني، كما اختلف تيلر مع فيبر في حتمية وقوع عملية تحرير العالم من القداسة كثمن لعمليات التحديث والعقلنة. كما أن الإنسان الحديث لا يمكن أن يستسلم لأشياء لا معنى لها، وهذا هو مذهب توكفيلي وتشسترتون الذي يناقض مذهب فيبر.

وبينما يحتفي توكفيلي بفصل الدين عن الدولة كأمر يؤدي لحيوية الدين وأثره الإيجابي في المجتمع، نجد قطب ينظر إلى هذا الفصل نظرة سلبية، فيرى أن هذا الفصل سيجعل المجتمع لقمة سائغة تبتلعها الرأسمالية.

واعتبر كرستيان سيمث في كتابه الثورة العلمانية- أن العلمنة أمر لا مفر منه، وقد جعل الفترة من ١٨٧٠ إلى ١٩٣٠

(١) المحرر (كاتب التقرير).

فترة استبعدت فيها الرموز والأفكار الدينية بدرجات متزايدة- عن الفضاء العام. وكأنه هنا يتحدث عن المظهر الأول للعلمانية التي تحدث عنها تويلر كما رأينا. ومن المثير أن سميث جعل، "كلارنس دارو Darrow" أهم ناشط للعلمنة عمل على تهميش الدين في هذه الفترة، بينما دارو هذا هو ذات الشخصية التي تحاور معها تشسترتون حول مستقبل الدين في الحياة، ورآه شخصًا متعاليًا يتناقش معه على أنه إنسان ساذج ومتطرف، وليس في مقام صديق بل بمثابة "عمة" أو "خالة" ساذجة لا تفهم شيئًا مع مزاج متطرف. وهذا هو أسلوب العلمانيين؛ إذ يقللون من مكانة المحاور ويعدونه شخصًا ينتمي إلى طبقة العوام السذج الذين لا يفقهون في الدين فيتطرفون فيه.

وبينما احتفل توكفيلي بفصل الدين عن الدولة لإعادة الحيوية إلى الدين في المؤسسات العامة، نجد قطب يقف موقفًا سلبيًّا من عملية الفصل هذه، إذ يرى قطب أن فصل الدين عن الدولة ما هو إلا استسلام المجتمعات الغربية للرأسمالية الحديثة كردة سلبية ضد الإنسانية، وسيؤدي هذا الفصل إلى علمنة الدين نفسه. وخلاصة رأي قطب في هذه الناحية أقرب إلى ماكس فيبر مع بعض الفوارق، وأبعد عن توكفيلي رغم القرب الروحي الديني بين قطب وتوكفيلي إن قارنا قطب المتدين مع ماكس فيبر المتعلمن. وبالطبع فإن الغربيين انتبهوا إلى الرؤية الكلية لقطب الذي يرفض المظاهر الثلاثة للعلمانية التي أشار إليها تيلور، وذلك راجع إلى رؤية قطب الكلية النابعة من شمولية الإسلام.

وقد وجد الكاتب عذرًا لقطب؛ إذ لا يمكن تطبيق الفهم الراسخ في الغرب الناظر إلى مسألة الاقتصاد كمحور مركزي للثقافة الغربية وقضية العقيدة الدينية وما يتعلق بها كحالة خاصة لا تدخل المجال العام، وهذا مختلف في الثقافة الإسلامية فهي ترى العكس؛ فالعقيدة هي النقطة المركزية التي يجب أن تشغل الفضاء العام، بينما مسألة الاقتصاد أقل شأنًا في هذا الصدد. وكذلك وجد البعض عذرًا لقطب حين انتقد التطرف الفكري في الثقافة الغربية المتجه نحو تحرير الإنسان من الله (إنكار الخالق واهب الحياة) وأن مشكلة العداء والتنافر في عالم اليوم ناتجة عن هذا التطرف في الإساءة إلى ما جاءت به الأديان الكبرى، وليست المشكلة في التنوع الديني والثقافي.

الإمبريالية Imperialism واللامبالاة Indifference:

يرى الكاتب أن ما أدانه قطب هو قضية التحرر الكامل من الدين كحالة مجتمعية، وقد أطلق عليها مصطلح "جاهلية" أو "مجتمع الجاهلية" عنوانًا معبِّراً عن الحالة التي رآها. فأنزل هذه الثقافة على المجتمعات بما فيها مجتمعات المسلمين.

ويرى الكاتب ضرورة تجنب أخطاء فيتنام كي نفهم الثقافات المختلفة عن ثقافتنا، والجذور الدينية التي عكست عداءً سافرًا لأمريكا كما تجسد ذلك في أحداث ١١ من سبتمبر المشهورة. ويرى آخرون وجوب مواجهة هذه الكتابات العدائية لأمريكا من أناس يمثلون التطرف والشر المطلق والبعد عن العاطفة الإنسانية وتخلو كتاباتهم من المنطق. وإن أهداف هؤلاء دينية ويجب أخذ هذه الحقيقة بمنتهى الجدية. (هذا رأي بعض الكُتاب الأمريكيين الذين راعتهم أحداث الحادي عشر من سبتمبر وأوردهم كاتب هذا الكتاب)[1].

لكن كما يرى الكاتب- ليست القضية في كون هؤلاء نفذوا هجومهم على أمريكا لأنهم إرهابيون فحسب، بل كثير

(١) المحرر (كاتب التقرير)

من المسلمين ينظرون إلى القيم الثقافية الأمريكية كالمذهب الفرداني وحرية المال وإباحة الجنس والعنف، على أنها تشكل تهديداً لقيمهم وحياتهم. وكثير من هؤلاء كانت مواجهة الثقافة الأمريكية في السبعينيات جارحة لمشاعرهم. مثلا ٨٠٪ من الرأي المصري في ٢٠٠٩ يرون أن أوباما يريد أن يفرض قيم الثقافة الأمريكية على المجتمعات المسلمة. كما أشار الكاتب إلى الشرق الأوسط باعتباره أكثر مكان في العالم فيه كراهية للقيم الثقافية الأمريكية. إذ نجد ٦١٪ من الأتراك و ٦٠٪ من المصريين و ٥٦٪ من الأردنيين و٧٨٪ من الفلسطينيين يكرهون التلفزيون والموسيقا والأفلام الأمريكية.

ونتج عن زيارة قطب لأمريكا اهتمام سيد المتزايد من خلال كتاباته- بالإمبريالية الأمريكية. ألَّف سيد قطب سنة ١٩٦٤ كتاب: العدالة الاجتماعية في الإسلام، وأشار فيه إلى أن أمريكا أسست مؤسسات مضادة ومحطمة للقيم الإسلامية عقائديًّا وأخلاقيًّا. لكن- يضيف الكاتب وهو على حق- لم يكن قطب هو المنزعج الوحيد من الإمبريالية الأمريكية، بل كذلك توكفيلي وتشسترتون وفيبر حينما رجع الأربعة إلى بلدانهم، ولذلك تشوهت سمعة أمريكا في البلاد الأوروبية وليس في الشرق الأوسط فحسب.

وقد صرَّح ١٥ بلدًا من ٢٠ بلدًا بأن انتشار الثقافة والعادات الأمريكية في بلدانهم أمر سيئ، وأن أعلى نسبة معارضة لهذه القيم الأمريكية كانت في بلدان الشرق الأوسط.

أخذ الثقافة على محمل الجد والإفادة من المعايير المزدوجة في تقييم الثقافة الأمريكية:

خلاصة العنوان تشير إلى إهمال أو جهل الأمريكيين بجوهر الثقافة، وتدعوهم إلى الاهتمام بها حتى يفهموا أنفسهم ويفهموا الآخرين، كما يشير العنوان إلى أنه ثمة معايير مزدوجة بين السلبية والإيجابية للأجانب المقيِّمين الثقافة الأمريكية ويستخلص الكاتب الفوائد من هذه المعايير لصالح المواطن الأمريكي وثقافته.

وثمة تحذير في الكتاب يؤكد ضرورة أخذ القضايا الثقافية بجدية بعيدًا عن العاطفة، وإلا سيتكرر وقوع ما لا يُحمد عقباه للأمريكيين، كما حدثت انتكاسة فيتنام ومأساة الحادي عشر من سبتمبر.

ويذهب الكتاب إلى أن الكتابات التي شكلت مجموعات سيد قطب وما شابهها، كتابات جادة وحاملة لقضايا سياسية حقيقية لا تحتمل التأجيل، ولا يمكن تصنيف هذا النوع من الكتابات ضمن كتابات الترف الفكري النخبوي. وإن المنظور الغربي المربوط بأبستمولوجيا العقلانية والبعيد عن العاطفية لا يمكنه أن يقبل مصطلحات ثقافية تسترشد بالألوهية من حيث الممارسات والأفكار، وتُحدد بحدود هذه الحقائق المتافيزيقية التي لا يمكن التحقق منها بالوسائل البشرية. وهذا يعني إشارة توجيهية إلى الأمريكيين بعدم التسامح مع الثقافة المبنية على أسس أو حقائق غيبية (ميتافيزيقية) كالثقافة القائمة على أديان الوحي مثلًا. ولعل المطلع على هذا الكتاب سيلاحظ أن هذه النصائح تعادي ما يُعرف بالتعدد والتنوع الثقافي الذي اشتهرت أمريكا بتبنيه والدفاع عنه. ومما هو مثير للاهتمام في هذا الشأن كما يورد الكاتب-أن اعتبار الأمريكيين للتعدد والتنوع الثقافي ليس نابعًا من الاهتمام بقضايا الثقافة الحيوية إنما هو نابع من الجهل بهذه القضايا! بمعنى: أن التسامح الظاهر، بل الاحتفاء بالتعدد الثقافي ليس نتاج علم ومعرفة بهذا المتعدد، بل نتاج جهل به! فالأمريكيون بحسب الكاتب- لا يحملون القضايا الجوهرية المكونة

للثقافة محمل الجد! بل إن قيمة الاحتفاء بالتعدد والتنوع الثقافي ليست نتاج الوعي بماهية الثقافة بل نتيجة الاهتمام بالنواحي الجانبية والهامشية والشكلية للثقافة. وذلك مثل: كيف نلبس؟ وما أذواقنا الفنية؟ وعادات أخرى في الأكل والموسيقا والرقص إلخ. بينما يهمل الأمريكي لب الثقافة، ويجهل القيم المعيارية والقيم الثقافية المركزية والمقدسة، بل يقوم الأمريكي بتسفيه كل جانب ثقافي معياري أو مركزي مقدس. وبينما اعتبر بعض الكتاب الأمريكيين أن السؤال عن القيم المعيارية للثقافة (Normative Values)[١] مجرد هراء[٢]، فإن المعيارية تمثل الجانب المعرفي المهم لأي ثقافة.

اتفق الزوار الأربعة على خطورة تجاهل القيم المعيارية والمقدسة في الثقافة، وأن ذلك قد يؤدي لجهل الأمريكيين بالآخر، بل بجهل أنفسهم. كما اتفق الأربعة على الدور العظيم للدين في تاريخ المجتمعات الأمريكية، وما لعبه إيجابًا في قضايا المجتمع كالاقتصاد والترابط الاجتماعي والتطوع والتخفيف من حدة العنصرية وحياة السجون والتقليل من الجريمة والمساهمة الإيجابية في مجال التربية والتعليم والديمقراطية... إلخ. وقد أجمع الزوار الأربعة على أن تجاهل الدين وقضاياه هو تجاهل للتاريخ الأمريكي وللهوية الأمريكية. فضلًا عن أن ذلك الموقف (المحارب للدين) سيخلق مشاكل بين أمريكا والعالم. إنّ هذا الموقف المُشكِل عبَّرت عنه الكاتبة مارثا بليرز حين قالت: (إن موقف الحكومة الأمريكية الرسمي من المجتمعات الدينية أو تلك التي تحتفي بالمقدس هو موقف علماني)[٣]. ويرى بروفسر نولان أن هذا الموقف سيخلق مشاكل لأسباب متعددة:

أولًا هذا الموقف لا يمثل حقيقة أمريكا، على الأقل حينما نقارن أمريكا بأوروبا الغربية، فالأمريكيون مازالوا أكثر تدينًا من حيث الإيمان (اعتناق العقيدة الدينية)، ومن حيث ممارسة الشعائر الدينية. وبهذا المعنى سيكون المستوى العلماني العالي الذي يعلنه ممثلو الحكومة الأمريكية في العالم، (الذين يمثلون الجانب الرسمي لأمريكا)، مثالًا للكيف المدهش الذي سيصبح فيه النوع الأول والنوع الثالث من تصنيفات تويلر للعلمنة أكثر أهمية من النوع الثاني[٤].

هذا الموقف- بحسب الكاتب- كان سيدهش نموذج توكفيلي المخالف للنموذج الفرنسي؛ إذ رأى توكفيلي في نموذجه الداعي لفصل الكنيسة عن الدولة باعتبار أن هذا الفصل سيجعل الدين مزدهرًا وسيعزز من دوره وفاعليته تجاه المجتمع، وبطريقة غير مباشرة تجاه النظام الديمقراطي الأمريكي. وما يدهش توكفيلي هنا حين يرى أن النموذج الأمريكي انتهى إلى تغييب الهوية الدينية للمجتمع الأمريكي في حضرة مجتمعات مدنية متدينة ترتبط بعلاقات سياسية واقتصادية مع أمريكا. بل ظهر العكس وكانت النتيجة سلبية على السياسة والمصلحة الأمريكية حين أظهرت الدولة

(١) القيم المعيارية للثقافة هي التي تحدد ما ينبغي أن تكون عليه الثقافة. وما المعايير التي يجب أن تكون عليها الثقافة؟ فالمعيارية خلاف الوصفية descriptive فالوصفية تهتم بوصف ما هو كائن بالفعل بينما تهتم المعيارية بسؤال ما ينبغي أن يكون عليه الحال (المحرر).

(٢) هذا ما جرى نقاشه بين وليم جيمس رائد البراجماتية الأمريكية وماكس فيبر رائد نظريات العلمنة (المحرر).

(٣) ص: ٢٣١.

(٤) قلتُ: لعل الكاتب أراد أن يسخر من علاقة أمريكا باعتبارها شعبًا من الشعوب الأخرى. وكيف أن الجانب الرسمي المفارق للدين لا يعكس حقيقة الجانب الشعبي غير المناهض للدين. فتراجع الدين في الفضاء العام (وهو النوع الأول) لا يعكس حقيقة هذا التراجع في الفضاء الخاص وهو النوع الثاني الذي يمثل مواقف الأفراد الذين يمثلون الشعب. بينما النوع الثالث يتحدث عن لا مقبولية الحديث عن قضايا الإيمان حينما نتحدث في قضايا الثقافية. فهل من مصلحة الشعب الأمريكي ألا يتحدث ممثلوه في المقدس حينما يعيشون في بلد يشغله هذا المقدس؟ وبالجملة يتحدث الكاتب عن تمثيل الرسميين (الدولة) لهوية شعب بطريقة لا تعبر عن حقيقته ولا مصالحه.

الرسمية، هوية لا دينية للشعب الأمريكي أمام مجتمعات متدينة! وليس هذا الموقف لا يمثل حقيقة المجتمع الأمريكي فحسب، بل سيجلب كراهية كبيرة لأمريكا من تلك المجتمعات المتدينة.

ومن ناحية أخرى كما يرى الكاتب- فقد فشلت أمريكا أن تقدم نموذجًا لدول أخرى تتوجس من الديمقراطية خوفًا من فقدان مقدسها. وذلك بأن تكون أمريكا مثالًا للدولة الديمقراطية التي لا تضيِّع دينها بسبب فصله عن الدولة. فالدولة المثالية، عند نولان، مشابه لنموذج توكفيلي؛ إذ يجب ألا تكون ثيوقراطية وألا تكون مغيبة لدور الدين الحيوي الذي يجب أن يساعد فضاء النظام الديمقراطي. فكانت الفرصة متاحة لأمريكا أن تكون حكومة وسطًا بين الثيوقراطية والعلمانية. وقد عبّر عن خط بروفسر نولان هذا، عالم الاجتماع روبرت هافبر بقوله: " كان بإمكان الحكومة الأمريكية أن تقدم نموذجًا بين الثيوقراطية والديمقراطية العلمانية حيث تتعايش معًا المثاليات الدينية والقيم الديمقراطية"[(١)].

ويقول بايلس: واحدة من أسباب إخفاقاتنا الكبرى في الشرق الأوسط هو امتثالنا لموقف علماني لا هوادة فيه أثناء تعاملنا مع مجتمعات عالية التدين. لقد فشلنا في عكس أهم الجوانب الحيوية في تاريخنا"[(٢)]. يقصد الجانب الديني كما تمظهر في التاريخ الأمريكي.

ورصد زوارنا الأربعة أن الأمريكيين ذوو ميول إمبريالية وتبعية، وهذا السلوك يتبعونه حين التعامل مع الآخر. لذا فإنهم يحرصون على تصدير الأشياء أو القيم الثقافية الأمريكية كما هي، ولا يراعون ضرورة مواءمتها مع قيم الآخر (فرض قيمهم ونمط تفكيرهم على الآخرين، فيحسبون غيرهم أمثالهم! وهذا ما لاحظه الكاتب أثناء تأليفه لكتاب يعالج مشاكل المحاكم الأجنبية (الدولية) من خلال ضرورة النظر إلى القيم الثقافية المحلية التي تربى عليها مرتكبو هذه الجرائم.

ويرى الكاتب أنَّ ثمة محطة أخرى لوحِظ فيها تمثل هذه الإمبريالية والتبعية، وهو ما عُرف بمؤتمر الأمم المتحدة للسكان الذي عُقد في القاهرة عام ١٩٩٤. هذا المؤتمر حلله بعض علماء الاجتماع، ووصلوا إلى أن فرض القيم الغربية الأمريكية وجدت مقاومة قوية من تحالف دولي، وليس من الشرق الأوسط فحسب. وخلصوا إلى أن "مشكلتنا ليست أننا نبالغ في تقدير الاختلافات الثقافية ولكننا نقلل منها". و"على الرغم من احتفالنا بالتعددية الثقافية، فإننا نتخيل في الواقع تماثلاً في النظرة والتطلع، وهو إسقاط غير مقصود لأنفسنا في النهاية"[(٣)]. وكما يشير الكاتب فإنّ هذا السلوك مشابه لما حدث للعراق، فقد سمي الغزو بمسمى "مهمة استزراع الديمقراطية في العراق".

وفي استطلاع أجري عام ٢٠٠١ فإن شعوب دول العالم الإسلامي رحبت بالديمقراطية كما يرحب الشعب الأمريكي، ولكنهم رفضوا القيم والأفكار والسلوك السياسي للأمريكيين بنسبة عالية بلغت:

٧٣٪ في تركيا،و ٥٤٪ في الأردن،و ٥٤٪ في مصر،و ٦٧٪ في باكستان.

(١) ص: ٢٣٢.

(٢) ص: ٢٣٢.

(3) Davis, cultural and Relativism, p: 270.

وفي عام ٢٠٠٣ و٢٠٠٤ أجري استطلاع آخر عن مدى تقبل شعوب العالم للقيم الديمقراطية، فكانت النسبة عالية في قبول هذه القيم سواء من الشعوب المسلمة أو الشعوب الغربية.

فبينما الأقطار المسلمة مجتمعة معجبة بالتقدم العلمي والتطور التكنولوجي في أمريكا كما هو موقف سيد قطب، إلا أن الجميع ضد قيم الثقافة الأمريكية. وهذا هو رأي الرئيس المصري محمد مرسي[١] رحمه الله، كما يقول كاتب الكتاب.

وأشار الكاتب إلى أن صُحُفًا أجرت استطلاعًا في شوارع القاهرة بعد وقوع هجوم الحادي عشر من سبتمبر مباشرة. وكانت النتيجة أن لم يتعاطف أي فرد مع أمريكا، بينما تعاطف الجميع مع الضحايا وشجبوا قتل الأبرياء. كما أن جميعهم عارض الانتقام من أفغانستان جراء وقوع الهجوم. وبينما نصح بعض كتاب الأعمدة، عقب هذا الهجوم، أميركا أن تتحاور مع الذين يكرهونها.

ويرى الكاتب أن أسباب كراهية الشعوب المسلمة لأمريكا تتجلى في محاولة أمريكا فرضها قيمها التي تتعارض مع الإسلام فضلًا عن قوتها العسكرية الزائدة وغطرستها، وهذه الأمور نفسها اعترض عليها سيد قطب قبل نصف قرن، لكن غالب الشعوب المسلمة لا تؤمن بالمواجهة العسكرية التي اشتهرت بها كتابات سيد قطب. وليس سيد قطب وحده ينتقد هذه القيم، بل معه كثير من الناس؛ إذ أظهر مؤتمر السكان في القاهرة ١٩٩٤ الاعتراضات ذاتها التي اعترض عليها سيد قطب، وما زالت هذه الاعتراضات مستمرة.

ولهذا لابد أن تأخذ أمريكا مأخذ الجد كل الانتقادات التي انتقدها سيد قطب وشاركه فيها أوروبيون آخرون.

ويرى الكاتب أن ما دفعه إلى تأليف الكتاب هو حالة سيد قطب من ناحية، وما اهتم به هو شخصيًّا في كتاب سابق له يواجه فيه محاولة فرض القيم الثقافة القانونية الأمريكية في النزاعات الدولية[٢].

ويرى في الحالة الأولى "حالة قطب" مقارنة بالزوار الثلاثة، أنّه من الصعب وصف سيد قطب بازدواجية المشاعر تجاه موقفه من قيم الثقافة الأمريكية، رغم أنّه أشاد بجانب من جوانب الحياة الأمريكية. بينما يصدق الحكم بازدواجية المشاعر عند الزوار الأوروبيين الثلاثة.

(أظن أن الكاتب أراد أن يختم كتابه بخلاصة مفادها أن سيد قطب انتقد أمريكا لأنه كرهها. بينما الثلاثة الآخرون مشفقون عليها أي انتقدوها حينما أحبوها)[٣]. وقد أضاف إلى هؤلاء الثلاثة الكاتب الروسي المعروف (ألكساندر سولزنتين) الذي انتقد أمريكا بدون تحفظ في عقليتها التجارية والمادية الأمريكية، والنزعة التي ترغب أن يكون كل العالم نسخة من أمريكا، والنزعة الإمبريالية، على الرغم من إعجابه بأمريكا في أنظمة الحكم والديمقراطية، وتمنى أن تكون روسيا ديمقراطية، لكنه يرى أن أمريكا صدرت لبلاده الأمور السيئة كالعري والدعارة والمخدرات والإدمان والجرائم

(١) درس الرئيس المصري المنتخب محمد مرسي الهندسة في الولايات المتحدة الامريكية ومن الطبيعي جدًّا أن يشيد ويعجب بالتطور الأمريكي في مجال العلم، ومن الطبيعي ألا تعجبه قيم الثقافة الأمريكية.

(٢) أشرنا إلى الكتاب في هامش سابق.

(٣) كاتب الدراسة.

المنظمة والاحتيال في كسب المال. ويتأسف أن بلاده استوردت ما هو مظلم وتركت عكسه. وما شهد (ألكساندر) شهدت به الطبيبة الصينية حين خاطبت مجموعة من الأمريكيين وهي تغادر أمريكا بأنهم أعطوا الصين رذائلهم دون فضائلهم.

الفائدة من الازدواجية:

برر الكاتب نقد القيم الثقافية لبلاده من خلال أناس أثبتوا ازدواجية في مشاعرهم تجاه أمريكا. واعتبر الكاتب أن الازدواجية من طبيعة الحياة والأشياء، وأن أجمل الأشياء تنطوي على ازدواجية. وإن التركيز على الأشياء السلبية لا يعني تفنيد الأشياء الجميلة، بل المقصود التعمق أكثر وتجديد الأفكار والتغلب على السلبيات. وإن هذا النوع من نقد قيم الثقافية الأمريكية مهم، ولاسيما حينما يأتي من غرباء أجانب، فإن فائدته للأمريكيين تكون أعظم ؛ ليفهموا أنفسهم. وكذلك سيساعدهم في اعتبار القيم الثقافية للآخر ووعيهم بأهمية الآخر المختلف. وستجعل هؤلاء الأمريكيين يعون جوهر الذهب ويتجاهلون المغشوش منه. وفي الختام برر تشسترتون بأن الأشياء الجميلة لا تُصدّر، بل يجب عليك أن تسافر إليها وذلك ردا على الناقدين الناقمين الذين يرون أن أمريكا صدرت أسوأ ما عندها من قيم إلى دول أخرى.